باب الشعر والادب

شرف العلم وشمائل العلماء

نبدأ هذا الباب بقصيدة القاضي عبد العزيز الجرجاني الشهيرة في شرف العلم وأخلاق العلماء وشمائلهم قال: —

يقولون لي فيك انقباضٌ وانما ... رأوا رجلاً عن موقف الذُّلّ أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم ... ومن أكرمتهُ عِزَّةُ النفس اكرما
ولم أقضِ حقَّ العلم ان كان كلما ... بَدا طَمَعٌ صيَّرتهُ لي سلَّما
وما زلتُ منحازاً بعرضي جانباً ... من الذُّلّ أعتدُّ الصيانةَ مَغنما
اذا قيلَ هذا مَنْهَلٌ قلتُ قد أرى ... ولكنَّ نفس الحر تحتمل الظما
أنزِّهها عن بعض ما لا يَشينُها ... مخافةَ أقوال العدا فيمَ أو لِما
فأُصبحُ عن عيب اللئيم مُسلَّما ... وقد رحتُ في نفس الكريم معظما
واني اذا ما فاتني الامر لم أبتْ ... أقلِّبُ فكري إثْرَهُ مُتندِّما
ولكنه ان جاء عفواً قبلتُه ... وان مالَ لم أتبعه هلاَّ ولَيما
وأقبضُ خَطوي عن حُظوظ كثيرة ... اذا لم أنلها وافرَ العِرضِ مُكرَما
واكرمُ نفسي أن أضاحك عابساً ... وأن ألتقي بالمدح مذَّمما
وكم طالبٍ رقّي بنُعماه لم يصِل ... اليهِ وان كانَ الرئيسَ المعظما
وكم نِعمةٍ كانت على الحرّ نِقمةً ... وكم مَغنم يعتدُّهُ الحرُّ مغرما
ولم أبتذل في خدمة العلم مُهجتي ... لأخدُمَ من لاقيتُ لكن لأُخدَما
أأشقى به غرساً وأجنيه ذِلَّةً ... اذاً فاتباعُ الجهل قد كان أحزما

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظّموه في النفوس لعظّما
ولكن أهانوه فهان ودنّسوا محيّاهُ بالأطماع حتى تجهّما
وما كل برق لاح لي يستفزني ولا كل من في الارض أرضاه منعما
ولكن اذا ما اضطرّني الضرّ لم أبت أقلّبُ فكري منجدًا ثم متّهما
الى أن أرى ما لا أغصُّ بذكره اذا ملتُ قد أسدى إليّ وأنعما

ومما يروى عن الامام الشافعي في معنى هذا الشعر قوله :

العلمُ من شرطهِ لمن خدمَه أن يجعلَ الناسَ كلهم خدمَه
وواجبٌ صونُه عليه كما يصون في الناس عرضه ودمه
فمن حوى العلم ثم أودعه بجهله غير أهله ظلمه
وكان كالمبتني البناء اذا تمّ له ما أرادَه هدمه

المراد من البيت الاول: ان من خدم العلم حق الخدمة ساد الناس وكان اماما وقدوة لهم. وبذلك يجعلهم خدماً له باختيارهم. وانما يكون هذا في الامم الحية التي تعرف قدر العلم وأهله. وكذلك كان المسلمون في عصر الامام الشافعي، وهو ما نرى مثاله في امم الافرنج اليوم على كثرة علمائهم المبرزين. وقد نهى أحد ملوكهم ولده ان يخاطبه بنعت « الجلالة » في حضرة شاعر الفرنسيس المفلق [فيكتور هيغو]

والمراد من صون العلم في البيت الثاني المفسر في البيت الثالث ان إيداعه غير اهله هو ان تهان العلوم الكمالية التي هي فروض كفاية عن السفهاء فاسدي الاخلاق، فلا يلقن هؤلاء الا ما يجب عليهم شرعاً لاداء عباداتهم وتصحيح معاملاتهم. ثم يصرفون الى الاعمال اللائقة بهم لانهم اذا تقنوا العلوم العالية يتخذونها ذرائع لمفاسدهم، ويضلون الناس بجهلهم وسوء سيرتهم، كما نرى مثاله في وعاع الناس الذين يتعلمون ولا يتهذبون ثم يصيرون حكاماً او معلمين

وللامام شعر آخر في هذا المعنى رواه السبكي في طبقات الشافعية بسنده الى ابي عمر العثماني قال: لما دخل الشافعي الى مصر كلمه أصحاب مالك فأنشأ يقول :

أأنثر درًّا بين راعية الغنم وأنثر منظوما لراعية النعم
أبن كنت قد ضيّعت في شر بلدة فلست مضيعا بينهم غرر الكلم
فان فرّج الله الكريم بلطفه وأدركت أهلا للعلوم وللحكم
بثثت مفيدًا واستفدت ودادهم والا فمخزون لديّ ومكتتم
ومن منع الجهال علما أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وروى السبكي بسند آخر بيتين عن الشافعي ذكرهما سببا يدل على قدم التعصب لهؤلاء الائمة ، فقد نقل عن الحافظ ابن منده ان الربيع قال رأيت أشهب بن عبد عبد العزيز ساجدا وهو يقول في سجوده : اللهم أمتِ الشافعي والا يذهب علم مالك . فبلغ الشافعي ذلك فتبسم وأنشأ يقول :

تمنى رجال أن أموتَ فان أمتْ فتلك سبيلي لست فيها بأوحد
وقل للذي يبغي خلاف الذي مضى تهيّأ لاخرى غيرها فكأن قد

ومما روي عنه من الشعر ، عند إرادة الهجرة الى مصر ، قوله :—

لقد اصبحت نفسي تتوق الى مصر ومن دونها ارض المهامه والقفر
فوالله ما أدري الفوز والغنى أساق اليها أم أساق الى قبري

ومن شعره الذي يذكر فيه السفر ولوازمه ما روي عن صاحبه المزني قال : قدم الشافعي بعض قدماته من مكة فخرج إخوان له يتلقونه واذا هو قد نزل منزلا والى جانبه رجل جالس وفي حجره عود ، فلما فرغوا من السلام عليه قالوا له : يا أبا عبد الله أنت في مثل هذا المكان ؟ فأنشأ يقول : —

وأنزلني طول النوى دار غربة يجاورني من ليس مثلي يشاكله
فحامقته حتى يقال سجيه ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

ويروى أحامقه مكان فحامقته . ومعنى حامقته ساعدته على حمقه كما قال الجوهري وابن منظور ، وأما عاقله فمعناه غالبه في العقل ، فيفهم من البيت ان الامام

كان يجاري رفيقه العوّاد في هوسه بضرب العود ولا يأتي هذا الا اذا كان يرى إباحته

أكثر شعر الامام الشافعي في الحكم والاخلاق، وروي عن أبي يعقوب البويطي أنه قال له: قلت للشافعي: قد قلت في الزهد فهل لك في الغزل شيء؟ فأنشدني

يا كاحل العين بعد النوم بالسهر ... ما كان كحلك بالمنعوت للبصر
لو أن عيني اليك الدهرَ ناظرةٌ ... جاءت وفاتي ولم أشبع من النظر
تسقيا لدهر مضى ما كان أطيبه ... لولا التفرق والتنغيص بالسهر
ان الرسول الذي يأتي بلا عِدَة ... مثل السحاب الذي يأتي بلا مطر

ومن كلامه في الشكوى من الاغنياء الاغبياء البخلاء

وأنطقتِ الدراهمُ بعد صمت ... أناساً بعد ان كانوا سكوتا
فما عطفوا على أحد بفضل ... ولا عرفوا لمكرمة بيوتا

وجدير بهذا القول من عبر عن حاله بعد انفاق جميع ماله بهذين البيتين

يا لهف نفسي على مال أجود به ... على المقلين من أهل المروءات
ان اعتذاري لمن قد جاء يسألني ... ماليس عندي لمن احدى المصيبات

وقال في الصداقة

صديق ليس ينفع يوم بأس ... قريب من عدو في القياس
وما يبغي الصديق بكل عصر ... ولا الاخوان الا للتأسي
عمرت الدهر ملتمساً بجهدي ... أخا ثقة فأكداه التماسي
تنكرت البلاد علي حتى ... كأن أناسها ليسو بناس

وقال في مثل ذلك

ليت الكلاب لنا كانت مجاورة ... وانا لا نرى ممن نرى أحدا
ان الكلاب لتهدا في مرابضها ... والناس ليس بهاد شرهم أبدا
فأنج نفسك واستأنس بوحدتها ... تلقى سعيدا اذا ما كنت منفردا